عنوان المداخلة: "حركة انتقال العلماء وطلاب العلم بين توات والسودان الغربي بين القرنين 16م-18م "دراسة في العوامل و النتائج"

أ. سحابات زهيـــرة – جامعة تيارت

مقدمة:

إن العلاقة بين توات والسودان الغربي لم تكن وليدة القرن 16م بل هي ضاربة في أعماق التاريخ رغم اتساع الصحراء وبعد المسافات بين الضفتين، حيث لم تمنع التواصل بينهما وأعطت للعلاقة طابعا خاصا، كما شهدت المنطقتين هذه الفترة ازدهارا حضاريا، حيث وعدت هذه الفترة من أخصب المراحل التاريخية من الناحية الثقافية، وأصبحت لمنطقة توات صلة وثيقة بالسودان الغربي الذي أصبح هو الآخر يشهد انفتاح علمي وفكري، وهذا ما شجع الحركة العلمية فيهما وأعطاهما انتعاشا وتنوعا لا يوصف، اختلفت فيه الطبوع والسمات بين الصبغة العربية والصبغة الإفريقية وهذا التنوع أثر على الجانب الفكري والروحي للضفتين وأصبحا إشعاعا علميا وثقافيا خاصة بغد انتشار الإسلام في الضفة الجنوبية، وهذا ما شجع أيضا حركة انتقال العلماء وطلاب العلم إلى التنقل بين الضفتين الصحراويتين إذ رحل العلماء السودانيين إلى توات وفي نفس الوقت علماء توات إلى السودان الغربي لينهلوا من علماء الطرفين وللتنوع العلمي والثقافي من جهة أخرى، وإن اختلفت العوامل والنتائج المترتبة عن ذلك، وهذا ما سنقف عليه في مداخلتنا هذه عبر الاجابة عن هذه التساؤلات التالية:

ماهي العوامل التي مهدت لحركية انتقال العلماء وطلاب العلم للتنقل بين الضفتين؟ ومن هم أهم العلماء والطلاب الذين توافدوا عليهما؟

وماهي النتائج التي تمخضت عن هذا الانتقال وأيّهما تأثر بالآخر؟

1/العوامل المساعدة في انتقال العلماء وطلاب العلم بين توات و السودان الغربي: إن عملية التواصل والارتباط وحركية انتقال العلماء والطلاب بين الضفتين ساعدت في تبلوره عدة عوامل وإن اختلفت إلا أن الهدف كان واحد، ويمكن ذكرها فيما يلي:

1/التماس الجغرافي:

إرتبطت منطقة السودان الغربي دوما وعبر التاريخ بدل المغرب الإسلامي بحكم القرب الجغرافي ونظرا لإتساع الصحراء وبعد المسافات بين ضفتيها توات في الضفة الشمالية والسودان الغربي في الضفة الجنوبية الغربية كان وجود محطات ومراكز حضارية في كلتا الضفتين ضروري جدا ،خاصة بعد إنتشار الإسلام والهجرات العربية نحو الجنوب، مما وطد العلاقات بينهما .

فتوات تقع في الضفة الشمالية من الصحراء الجزائرية الجنوبية الغربية و هي مجموعة واحات تؤلف في مجموعها اقليم عبور مابين سفوح الاطلس الجنوبي و بلاد السودان يحدها من الشمال العرقي الغربي وهضبة تادمايت ومن الجنوب هضبة مويدير و يشكل واد الساورة الطريق التجاري لإقليم توات ويتشكل من ثلاث مناطق متميزة وهي:تنجورارين-توات-تيدليكت[1].

ولقد اختلفت المصادر حول أصل تسميتها فالبعض يقول أنها تكروري و تعني وجع الرجل و رأي آخر مفاده أن توات جاءت من الإتاوات التي كانت تدفع إلى الموحدين و غيرها من الآراء.[2]

أما السودان الغربي فالعرب المسلمون هم أول من أطلق عليهم هذا المصطلح أو التسمية وهو ينقسم إلى" السودان الغربي-الوسط- الشرقي" ولكن توات كان له صلة وثيقة مع السودان الغربي و الذي يشمل حوض نهر السينغال والمناطق المحيطة به و قامبيا و فولتا العليا و النيجر الأوسط(نيجيريا).[3]

ولهذا لعب التماس الجغرافي اعتبرت توات رافدا أساسيا من روافد السودان الغربي و رغم قساوة الصحراء و اتساعها إلا أنها لم تستطع أن تحد منه وتقف حاجزا طبيعيا بينهما ، لأن الانسان الافريقي سواء التواتي أو حتى السوداني تمكن من اختراقها مما مهد الطريق و أصبح القرب الجغرافي عاملا أساسيا في التقارب الفكري وسهل الطريق على العلماء والطلاب من كلا الفئتين التنقل بين أرجاء الصحراء بصفة عامة وبين الضفتين توات والسودان الغربي بصفة خاصة دون عناء.

2/حركة القوافل التجارية :

لقد شكلت التجارة إحدى وسائل الاتصال المثمرة بين توات وإفريقيا الغربية وإحدى العوامل المساعدة على التنقل بين الضفتين حيث استغلوا هذا الجانب الاقتصادي للتواصل، وفي توات كانت تجتمع القوافل من الشمال مع القوافل القادمة من بلاد السودان، بوضعها نقطة عبور وممر رئيسي لهاته القوافل، خاصة بعد تراجع مكانة الطريق الغربي الرابط بين سجلماسة وولاتة وغاو، ونتيجة للاضطرابات السياسية وانتشار قطاع الطرق، مما أدى إلى خروج التجارة شرقا نحو توات الذي أصبح المركز الأهم، خاصة مع ازدهار مملكة سنغاي، وكانت القوافل عادة ما تكون محملة بالكتب والمخطوطات بعدما راجت تجارتها في ذلك العصر بفضل ما كانت تدره من أرباح تفوق بكثير أرباح السلع الأخرى ،بالإضافة إلى التجار المحليين وكانت تجارة غالبيتهم مع السودان الغربي. [4]

وعليه إستغل أهل توات موقع إقليمهم الوسط بين أسواق الشمال المغربي والجنوب السوداني، كما استغل سكان السودان الغربي التنوع الاقتصادي الذي تتمتع به منطقة توات، حيث صارت توات نقطة إلتقاء هامة وتجمع للتجار القادمين من توات إلى السودان ومن السودان إلى توات وغيرها[5].

مع العلم أن أغلب هؤلاء التجار كانوا يتمتعون بثقافة علمية واسعة أهلتهم للقيام بدور علمي إلى جانب نشاطهم التجاري أو ما يعرف بظاهرة الفقهاء التجار الذين أثاروا العمل بالتجارة على التدريس والقضاء لبركتها ولما كانت توفر لأصحابها من مكاسب[6]، ولهذا كان طبيعيا أن يسهم التاجر التواتي في الدعوة للإسلام من جهة والثقافة العربية من جهة أخرى، فقد نقل التواتيون إلى السودان الغربي سلعهم ومعارفهم ومخطوطاتهم وثقافتهم.

3/العوامل الدينية والثقافية:

لقد رافقت الحركية التجارية حركية علمية نشطة وهذا بعد أن انتشر الإسلام بالمنطقة عن طريق علماء توات من خلال تعليمهم للطلبة السودانيين أو انتقالهم إلى مناطق السودان الغربي أمثال المغيلي وغيره بغية نشر الإسلام ومبادئه، ولعل هذه الوحدة الدينية هي التي سهلت حركة التنقل، كما انتشرت اللغة العربية وآدابها والتي اتخذوها وسيلة للإبداع الفكري فتحولت بالتدريج إلى أداة للعمل الحضاري في أوسع مجالاته، وبذلك حققت المجتمعات السودانية وحدتها الدينية واللغوية وسهل ذلك عليها تنقل العلماء والطلاب بكل أريحية وإقامة مراكز حضارية كبرى لها تأثير في النهضة والتطور[7].

ولهذا استغل العلماء التواتيون هذه النهضة العلمية وساهموا في نشر الإسلام وثقافته بواسطة الرحلات العلمية وتبادل الوفود بها، ولقاءات مواكب الحج والإجتماع حول الطرق الصوفية، ولقد إشتهر علماء توات برحلاتهم العلمية إلى المراكز الحضارية الكبرى في العالم الإسلامي ،وذاع صيتهم أيضا

في العواصم الثقافية خاصة في بلاد السودان الغربي، كما سعى علماء السودان الغربي إلى الانتقال إلى هذه الضفة والاستفادة من هذه المنارة العلمية ومن علماءها الأكفاء[8].

ومن العلماء الجزائريين الذي رحلوا إلى تمبكتو وغيرها من المدن الإفريقية عبد الكريم المغيلي (سنتطرق إلى تعريفه فيما بعد) والذي ترك بصمة في الفكر والثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي وفي حياة مجتمعاتها [9] ،وقد تمكن علماء توات من إرساء حركة ثقافية وعلمية جمعت بين علوم المشرق والمغرب واصطبغت بالثقافات والأعراف الإفريقية ،وهذا بحكم الجوار الجغرافي و الإزدهار العلمي، وهذه هي العوامل التي ساعدت ومهدت الطريق للعلماء وطلاب العلم للتنقل بين الضفتين بكل أريحية.

2/أهم العلماء وطلاب العلم المتنقلين بين توات والسودان الغربي:

أ/أهم العلماء الراحلين من توات إلى السودان الغربي:

1/محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني :

ولد سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في مدينة مغيلة التابعة لبلدية ودائرة مغيلة ولاية تيارت حاليا، وذلك سنة 831 هـ الموافق ل1427م، لقد تلقى دراسته الأولى بتلمسان حيث حفظ القرآن على يد السيد أحمد بن عيسى المغيلي التلمساني المعروف بالجلاب، كما أخذ عنه أمهات الكتب الفقهية كالرسالة ومختصر خليل وبن الحاجب وبعض الكتب بن يونس.

ولقد أجاد في عدة فنون مختلفة فتفقه في المذهب المالكي ،كما نمت في نفسه بذور الصوفية وغذاها إتصاله بالشيخ العالم سيدي عبد الرحمن الثعالبي، وبعد الأوضاع السياسية المزرية لممالك بني وطاس وبني عبد الواد والحفصيين في الشمال الإفريقي كانت تعاني من العدوان البرتغال على موانئ الأقصى.

في هذه الظروف العصيبة إنتقل الإمام المغيلي لواحات توات وفيها تناهت إليه أنباء المسلمين في إقليم السودان الغربي جنوب الصحراء عن طريق التجار والحجاج والطلبة الدارسين في الكتاتيب القرآنية بشمال وشرق ووسط إفريقيا ومن توات بدأت رحلة المغيلي إلى بلاد السودان الغربي وبالضبط إلى بلاد ألاهير شمال نيجيريا ومنها توجه إلى بلاد الهاوسا وإستقر بمدينة تيقدا أو تيغزة حيث كانت مزدهرة بالثقافة والفنون والحج بالتجارة ،فاشتغل فيها بالتدريس والوعظ والإرشاد ،ولقد انتقل إلى كانوا بعد ذلك ثم إلى كاسيتنا ليستقر بها بعض الوقت وبها تزوج وأنجب بها أطفاله الثلاثة .

وبعد الإقامة الطويلة ببلاد الهاوسا ،انتقل الإمام المغيلي إلى بلاد التكرور، ثم إرتحل إلى مدينة كاغه أو قاو عاصمة مملكة الصنغاي ، فانظم إليها عدد من العلماء ليعلموا في تلك النواحي وينشروا الإسلام ويقاوموا العادات والتقاليد الوثنية ،كما إنتقل المغيلي إلى بلاد التكرور لينشر فيها الإسلام والنظام الإسلامي [10]

ولقد خلف المغيلي وراءه تلاميذ كثيرون يعدون بالألاف في غرب إفريقيا ما يزالون حتى اليوم يدينون له بالولاء الفكري والأدبي، ويعترفون بفضله على مجتمعاتهم السودانية و لقد كتب الكثيرون عنه أمثال أحمد بابا التمبكتي و غيره، وعدّوه كبار المصلحين ببلاد السودان الغربي ولقد خلف المغيلي من وراءه كذلك إنتاجا فكريا غزيرا في ميدان التأليف، نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

1/ أجوبة عن أسئلة الأسقيا محمد الأول الكبير.

2/ البدر المنير في علوم التفسير.

3/ عدة قصائد منها الميمية على وزن البردة في مدح الرسول عليه الصلاة و سلم.

4/ كتاب الفتح المبين.[11]

2/أبو القاسم التواتي :

جاء مع جماعة من علماء وشرفاء تافيلالت وسكن بجوار المسجد الجامع وكان يستقبل في داره طلبة العلم وكان السلطان أسكيا محمد يصلي وراءه ويطلب دعاءه ،وأنشأ مقبرة تمبكت الكبرى التي حبس عليها الأسكيا صندوق فيه ستون جزءا من المصحف وجعله في المسجد الجامع الكبير لطلبة العلم وعندما توفي ابو القاسم سنة 1516م في تمبكت كان يوجد فيها خمسون عالما من علماء توات [12].

3/الشيخ عمر بن محمد المصطفى بن أحمد الرقاد الكنتي :

ينتمي إلى الأسرة الكنتية له تقاليد كثيرة فكان لا يسمع شيئا إلا ما كتبه ،جمع ديوانا من الشعر ،أخذ عن الشيخ محمد الصالح بن المقداد ،كما إستفاد من علمه محمد بن أب والفقيه محمد بن عبد المومن والفقيه أحمد بن حمادي والشيخ بن عومر التواتي، تميز بكثرة حفظه للأحاديث والحكم والأمثال والشعر توفي سنة 1157ه/1744م [13].

4/الشيخ محمد بن أب الزموري :

ينتمي إلى منطقة زمور أخذ الفقه عن الشيخ محمد الصالح ابن المقداد والشيخ عمر بن المصطفى الرقادي برع في علم اللغة والنحو والأدب ونظم الشعر أخذ عنه ابنه الشيخ ضيف الله والشيخ عبد الرحمن بن عمر توفي في العاشر من جمادى الثانية سنة 1747م-1160ه بتيميمون، له عدة مؤلفات ألف مختصر الاخضري في باب السهو سماه العبقري وله شرح على الهمزية للبوصيري وشرح لامية إبن المجراد في الجمل وأبيات وتقاليد له جوالي خمسة وعشرون مخطوط ذكرها كتاب قطف الزهرات[14].

كما انتقل الشيخ اللغوي محمد بن أب المزموري إلى بلاد السودان وزار تمبكتو و أروان ودرّس في الأخيرة علم العروض والقوافي وله قصيدة عن أروان التي زارها ولم يلق الترحيب اللازم بها.[15]

5/الشيخ الزجلاوي :

هو الشيخ إبن العالم الزجلاوي ينتسب إلى قصر زاجلو ومن أسرة على بن حنيني الأنصاري أخذ عن الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن التينلالي، توفي بزاجلوا شهر شوال سنة 1798، ولقد ترك مؤلفات في شرح خليل وألفية في غريب القرآن وله نوازل الزجلاوي التي يرجع لها علماء المنطقة وشرح على المرشد المعيني[16]، كما انتقل الى بلاد التكرور الشيخ محمد بلعالم الزجلاوي و مارس التدريس والإفتاء بها.[17]

6/الشيخ عبد الرحمن بن عمر التينلاني :

ولد بقصر تنيلان أخذ علومه من الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني والشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري والشيخ بن أب الزموري والشيخ عمر بن المصطفى الرقادي الكنتي وعن الشيخ أبي العباس سيد أحمد بن عبد العزيز الهلالي ، إنتهت إليه زيادة الفقه في إقليم توات فكان مجتهدا في المذهب المالكي وكان قاضي الجماعة عبد الحق بن عبد الكريم يعتمد على فتاويه فقد نهل من علمه طلبة أجلاء نذكر منهم محمد بن عبد الرحمن والقاضي عبد الحق بن عبد الكريم الماريني والشيخ عبد الكريم البكري والشيخ إبن عبد الرحمن البلبالي ومعمر بن العالم الزجلاوي توفي بمصر بعد رجوعه من تأدية فريضة الحج 1189ه/1775م.

وترك وراءه عدة مؤلفات نذكر منها:

- مختصر السمين ومختصر النوادر ومختصر الدر المصون في إعراب القرآن المبين[18].

ب/أهم العلماء الراحلين من السودان الغربي إلى توات:

1/الشيخ عبد الله الفلاني:

ومن بين العلماء الأفارقة الذين قدمو إلى توات حيث قدم إلى تنيلان من بلاد التكرور في رحلة طلب العلم ،ودرس على يد الشيخ عبد الرحمن بن عمر التواتي التننلاتي ومكث عنده شهرين وست ليال وقام بتدوين تلك الرحلة التي يصور لنا من خلالها كيفية قدومه لتوات ،وبعضا من الأحوال الإقتصادية بها ،كما يتحدث عن إجازة الشيخ عبد الرحمن بن عمر له[19].

2/الشيخ سيدي محمد الأداوعلي (ت قبل 1198ه/1784م):

تسمية لقبيلة (إدوعل) كبرى قبائل شنقيط ،ولد في شنقيط ودرس بها ،ثم خرج منها على رأس وفد من الحجيج من مختلف المناطق الإفريقية ،يريد البقاع المقدسة ،وكما وصل إلى منطقة عين صالح بتوات، توقف عن المسير وترك القافلة، وعاد لزاوية الركب النبوي بأقبلي، وهناك إستقبله شيخها أبو نعامة وطلب منه البقاء معها، لكن الإداوعلي فضل الإنتقال لتوات، وبالضبط لتمنطيط،عند الشيخ البكري بن عبد الكريم الذي إستقبله وبقي عنده دارسا ومدرسا فذاع صيته في توات، وطلبه أعيان عدد من القصور فإختار قصر أعباني، إستقر هناك وأسس زاوية ومدرسة، لكن شده الحنين في آخر عمره لإفريقيا ثانية ،فغادر توات في أخر أيام عمره إلى تمبكتو وتزوج هناك الى أن وافيه المنية بها أواخر القرن 12ه قبل سنة 1784/1198م بعدما ترك أبناءه بتوات ،في قصر أعباني بمقاطعة فنوغيل، ولم يكن وحده من العائلة الذي تنقل إلى تمبكتو، بل إبنه إبراهيم ويحتفظ ديوان الشاعر الإدواعلي بقصيدة شعرية أرسلها لولده في بلاد تمبكتو بعدما تركه ضريرا في توات، وبعد وصول القصيدة عاد إبنه لتوات وتوفي بها وقبره يزار في قصر أعباني[20].

ولشدة تعلق الأفارقة بتوات وكثرة ترددهم عليها إنتسب البعض إليها ،حتى صاروا لا يعرفون إلا (بالتواتي) مثل الحاج أحمد بن الحاج الامين الغلاوي الملقب بالتواتي ،كان من كبار العلماء والصالحين ،حج مرات عديدة إلى بيت الله الحرام ،وكان شيخ الركب من السودان الغربي إلى توات، ليخلفه أبو نعامة من توات إلى الحج، عرف بكرمه وزهده وهمته من مؤلفاته ، وله كتاب سماه كشف الغمة في بقع الأمة توفي عام 1157ه/1744م بفزان في ليبيا أثناء عودته من الحج [21].

ومن المؤرخين السودانيين الذين اهتموا بتوات نذكر:

3/أحمد بابا التمبكتي:

هو أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت الصنهاجي ،الماسي السوداني المشهور ب **بابا** وهو من أسرة عريقة في العلم تولى معظم أفرادها مهتمة القضاء ،ولد بمنطقة أروان ولد في ليلة الاحد الحادي عشر من شهر ذي الحجة ختام 963هـ[22] نشا في طلب العلم ،درس علوم بغيغ :كما أخذ على والده الحديث والمنطقة والكثير من أمهات كتب الأدب مثل مقامات الحرير إشتهر بين اقرانه بقوة الحفظ والمهارة في طلب دون كلل أو ملل ،تصدر بابا كغيره من العلماء لمهنة التدريس والتأليف وترك للمكتبة ما يربو على الأربعين مؤلف ،وقد عرفه تلميذه السعدي بقوله "... كان على علامة ،فريد عصره البارع في كل فن من فنون العلم،كما أثنى عليه المراكشي صاحب الفهرسة [23]

ولقد كان التمبكتي يرسل مراسلاته إلى الشمال عن طريق توات التي كانت همزة وصل لذلك ،وليس أدل على ذلك دليل رسالة الشيخ التمبكتي معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السودان التي جاءت كجواب سؤال حول قضية العبيد المجلوبين من بلاد السودانية التي أهلها المسلمون مثل برنو وكانو أرسله الفقيه الشيخ عبد الكريم بن أحمد التواتي[24].

ومن أهم مؤلفات التمبكتي :

1/نيل إبتهاج بتطريز الديباج .

2/كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج.

4/عبد الرحمن السعدي :

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي ولد بتمبكتو في غرة جمادى الأولى سنة 1004ه/1595م وهو من أسرة سودانية أوستقراطية[25] وحفظ القرآن الكريم وتتلمذ على يد الشيخ أحمد بابا وغيره من علماء وفقهاء المدينة ،وبعد ذلك إشتغل بالدعوة والإرشاد في عدة مناطق وجهات من الودان الغربي ،ولقد إشتغل عدة مناصب أهمها إماما في مسجد سنكري بجنى ،ثم عينه حاكم تمبكتو ناظر لخارجيته عام 1646ولقد سمح له هذا المنصب بالتنقل بكثرة في أنحاء مملكة صنغاي وساعده في كتابة كتابه التاريخي المشهور عن بلاد السودان [26]، ولقد تحدث عن علماء توات وقال أنهم كانوا يمثلون نسبة كبيرة وهامة من مشاهير علماء مدارس ومساجد السودان الغربي [27].

3/النتائج المترتبة عن هذا الإنتقال:

قبل استعراض نتائج هذا التنقل لابد أن ننوه أن حركة التنقلات هذه ظهر تأثيرها على السودان الغربي أكثر بكثير من على منطقة توات باعتبار هاته الأخيرة هي التي نقلت العلوم والمعارف والطرق الصوفية إلى السودان الغربي والذين تأثروا بها وسعوا إلى تعليمها وتدريسها وحتى أن علماء توات أضافوا بهيجا على الحواضر السودانية وفي نفس الوقت نشهد تنامي وبروز الحواضر التواتية وزواياها في هاته الفترة بعد انتقال العلماء والطلاب السودانيين لها، ومن أهم هذه النتائج نستعرض مايلي:

1/انتعاش الحركة العلمية:

لقد انتعشت الحركية العلمية في الضفتين جراء تنقل العلماء بينهما ، مع العلم أن توات كانت منذ تاريخها المبكر منار للعلم وسط هذه الصحراء الشاسعة فقد ساهمت في مد السودان الغربي بالثقافة والحضارة العربية، ومما يجدر الحديث عنه أننا لم نلحظ تأثير علماء السودان الغربي على منطقة توات إلا قليلا ، ويمكن هذا راجع إلى أن منطقة توات وعلماءها لهم الفضل على السودان بحيث أدخلت عليهم عدة علوم كالنحو والصرف وغيرها، بحيث انتقل حب المغاربة للنحو و الصرف إلى الإفريقيين لأن كثيرا من كتب النحو قد حملها الأساتذة العرب إلى افريقيا الغربية فيما أدخلوه الى تلك الأصقاع ، وكان الطلاب يقبلون على الدراسة بكثرة واضحة .[28]

ولقد تأثر الأفارقة بعلوم التواتيين ومن بين العلماء الأفارقة الذين تأثروا كثيرا بعلماء توات أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي (ت 1202م) صاحب مؤلف المشهور ،فأفتح شكور لمعرفة علماء التكرور والذي أخذ ورد الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني (ت 1207ه/1793م) وكان تلميذه عن طريق الشيخ مولاي زيدان التواتي (ت1202ه1788م) الذي كان الوسيط بين الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني وإتباعه في إفريقيا، ولم تذكر المصادر إن كان البرتلي تنقل إلى توات للأخذ من شيخه مولاي عبد المالك ،بالرغم من وصف الدقيق للزاوية برقان ،كما بلغ من شدة إحترامه وتأثره به تخصيص موضعا وترجمة له للشيخ مولاي زيدان في كتابة السالف الذكر ،رغم أنهما ليس من بلاد التكرور .

أما من حيث التأليف فقد حازت توات على اهتمام الأفارقة وراحوا يكتبون حولها مبدين إعجابهم واحترامهم لها ومن أمثلة على ذلك ما كتبه الحاج البشير بن الحاج أبي بكر الطالب محمد بن الطالب عمر البرتلي، الذي عرف بحبه للنبي، قام بالحج عام 1204ه/1790م وبعد عودته كتب رحلة يذكر فيها مراحل طريق الحج من بلاد توات إلى مكة ،أما الشيخ محمد بلان بن ختار، فله مؤلف بعنوان رسالة بأخبار تودن وأخبار تحركات الغزوات بين الهقار وتوات وتندوف وما جرى ذلك، ويضم أخبار لبعض الوقائع بين توات والسودان الغربي ،كهجمات اللصوص وقطاع الطرق وغيرها .[29]

2/تنامي دور الحواضر العلمية:

كان من نتائج حركة الانتقال بين العلماء وطلاب الفئتين هو ظهور وبروز بعض الحواضر العلمية والتي لمع نجمها بعد قيام هؤلاء برحلاتهم العلمية باتجاهها و البعض منهم شارك في تأسيسها، ومن أبرز المراكز الحضارية للضفتين والتي أدوا دورا مهما وبارزا في حركة إنتقال العلماء وطلبة العلم من أجل الإفادة والإستفادة هي:

أ/أهم الحواضر التواتية:

1/تيميمون: وردت في كثير من المصادر تحت إسم تينجورارين أرقورارة ،ثم أطلق الاسم على كل المنطقة الشمالية للإقليم ،تعود عمارتها إلى أزمنة غابرة لم تحدد المصادر التاريخية تاريخها بالضبط، لكن بعض الروايات تشير إلى أن إسم تيميمون يعود للأخوين كانا يسكنان نواحي واد الساورة، قدموا إلى توات كانا أحدهما يسمى ميمون نزل بقرية بالقرب من تيميمون [30] وكانت تسكن المنطقة قبائل من زناتة والعرب وبعض اليهود فأقام له أهل قورارة رقصة شعبية مشهورة تسمى أهليل وبقي ميمون مع تلك القبائل حتى مجيء الولي الصالح سيدي موسى بن مسعود (ت 920ه/1514م) إلى المنطقة فاستقبلته

القبائل ومنها أولاد داوود وأولاد حمو الزين ،وأولاد الذهبي، ودعاهم الشيخ بن مسعود للتوحد ،وتكوين حصن منيع في وجه الغزاة ،إلتقى أثناءها بالشيخ ميمون ووعده بأن هذه المدينة سوف تحمل إسمه .

ولقد برزت كحاضرة علمية للمنطقة الشمالية التي ظهر بها كثير من العلماء منهم الشيخ عمر بن الصالح الأكروتي الجراري (ت قبل 998ه/1589م)والشيخ محمد بن عبد الله إبن عبد الكريم الوطاسي الجريري (ت بعد 1017ه/1608م) والشيخ أبو محمد دفين تبلكوزة(ت1035ه/1625م)[31].والشيخ عبد الله الجوزي (ت 1035ه/1625م) أما خلال القرن 12ه فقد برز بتينجورارين العام الجليل محمد بن أب المزمري الذي حل بها وبقي هناك يدرس ويستقبل الطلبة ويؤلف الأبحاث والكتب إلى أن وافته المنية عام 1747م .وإلى جانب تيميمون شهدت منطقة تينجورارين هي الأخرى عديد المراكز الحضارية كأولاد سعيد، جنتور ،أقسطن ،أوقروت ،تسابيت ،أولاد راشد ،المطارقة.[32].

2/تمنطيط: بالطاء أو **تمنتيت** بالتاء أو بإتراكها معا إسم بربري مركب من كلمتين إنما تعني والنهاية و**تط** تعني العين ،أهم مدن توات وأكثرها شهرة على الإطلاق، للعاصمة الخالدة للإقليم ،تقع في منطقة توات الوسطى ،ويحدها من الشمال مقاطعة تيمي ومن الجنوب قصور بوفادي[33]، ولقد ذكرها الحاج عبد الرحيم محمد الطيب بقوله"فاعلم ان تمنطيط إسم لمدينة في إقليم توات إجتمع فيها العلم والعمارة والديانة والرئاسة فيها الأسواق والصنائع والتجارات والبضائع[34]، ولقد عرفت المدينة إزدهارا وتطورا في مختلف المجالات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية والعمرانية ،ذاع صيتها خاصة ما بين القرن 8و10 ه و 14و16 م وتوافد عليها العلماء من كل مكان ومنهم المغيلي [35].

4/أولف: تختلف الروايات حول أصل التسمية حيث يرى البعض أنها مشتقة من الألفة بإعتبار أن من يسكنها يألفها سريعا ،أما البعض الآخر فيرى أنها مشتقة من الكلمة البربرية أقلف وتعني خلية النحل أو تطلق على وسط النخلة أيضا وكلاهما تعبيرا عن المكان الجاذب للسكان ضمت المدينة العديد، ولقد ضمت المدينة العديد من الزوايا والمدارس الدينية والخزائن كزاوية مولاي هيبة التي أسسها الشيخ أبو الأنوار التنيلاني ،ولقد أنجبت أولف الكثير من العلماء أشهرهم محمد بن أب المزمري والشيخ علي بن محمد الصالح بن أحمد [36].

5/ملوكة : هي إحدى قصور تيمي ،تقول الروايات وبعض التقاليد الخطية أن مؤسسها من المرابطين الذين جاؤوا من المغرب ، وإستقروا بتبلبابه ثم إنتقلوا إلى توات بقصر أدغا ثم تيمي، وبرزت ملوكه كمركز إشعاع علمي وثقافي بدية من القرن 12ه مع بروز عدد من العلماء وتوافد الطلبة عليها للدراسة منهم الشيخ بن محمد بن عبد الرحمن البلبالي الذي تولى بها القضاء في توات [37]

ب/الحواضر العلمية السودانية:

1/تمبكتو :أصبحت للحاضرة تمبكتو مكانة علمية وثقافية لا تقل أهمية عن مكانة القيروان في تونس وفاس بالمغرب [38] أسست المدينة في القرن 11م على أيدي طوارق إيمغراسن، ولقد زارها حسن الوزان وقال أن من بناها ملك يدعى منسا سليمان عام610هـ على بعد12 ميلا عن أحد فروع النيجر[39].

وخلال القرن الثالث عشر ميلادي أصبحت تمبكتو مركزا ثقافيا هاما في السودان الغربي ،وتكاثر العلماء بها وشاركوا مناطق العالم الإسلامي الأخرى في الإنتاج الفكري والثقافي وذلك عندما ضعف مركز ولاته في المنطقة بعد غزو المرابطين لغانا، ولقد حظي العلماء بها بإحترام كبير ومنحت

المساعدات للطلبة، ليس فحسب من طرف الملك ولكن من طرف أثرياء البلاد وذلك لبلوغ مقاصدهم الثقافية ،ولقد إشتهرت تمبكتو بمسجدها الكبير الذي أسسه كنكن موسى ورممه الأسقيا داود، وذلك في نصف القرن 16م وهو مسجد السنكري الذي كان من أشهر المراكز الثقافية ومن المسجد هذا تخرج الكثير من علماء السودان الغربي، ويرجع الفضل إلى هؤلاء العلماء في نشر الثقافة الإسلامية في كل مناطق السودان بشقيه الغربي والشرقي[40]، ونبغ بها علماء أجلاء وفقهاء وقضاة ومؤرخون أمثال أحمد بابا التمبكتي، وعبد الرحمن السعدي والقاضي محمود كعت، ونشطت حركة التعليم والتأليف ونسخ الكتب والمخطوطات وتكون بها حي يدعى حي الوراقين على غرار أحياء مدن الشمال الإفريقي .[41]

ولقد كانت ذات إرتباط وثيق مع توات بحكم الموقع الجغرافي وكانت ذات تأثير على أنها مركز تجاري وثقافي في نفس الوقت، ورغم طول المسافة المقدرة بينهما بتسع وعشرون يوما، حيث سكن المدينة الكثير من العلماء والفقهاء والتجار التواتيين الذي كان لهم حي خاص بهم ،ومن أشهرهم الشيخ أبو القاسم التواتي الذي يسكن جوار المسجد الجامع من جهة القبلة وهو من احدث المقبرة الجديدة بجواره والتي ضمت قبره وقبر ضمنين تواتيا كانوا مثله في العباد والصلاح ،ولم يتوقف التواصل بين توات وتمبكتو خلال القرن 12ه، وأسهمت وتأثرت بالحركة العلمية لإقيلم توات. [42]

2/جنى: تأسست مدينة جنى على نهر النيجر الأعلى حوالي سنة 1100م او 1101 م وذلك في عهد الدولة المرابطية وقد جاء تأسيسها بهد أن أخذ نجم ولاته وغيرها من المراكز الحضارية القديمة[43]، وتعتبر هذه المدينة المركز الإشعاعي الثاني بعد تمبكتو في الميدان الثقافي، إعتنق أهلها الإسلام عام 1203م وعلى رأسهم الزعيم كنبر الذي هدّم قصره وشيّد في مكانه مسجدا ظل باقيا إلى القرن 19م وماتزال أثاره حتى اليوم، ومن أهم علمائها الفقيه محمد شاقوا الونكري، والقاضي محمود بن أبي بكر بقيع وغيرهم[44]، ومن العلماء الذين ساهموا في نشر الثقافة الإسلامية في السودان الغربي، الشيخ مورمغ كنكن عابد، والشيخ أحمد السحولية وهو من أكبر علمائها [45].

3/جاو: مدينة كاغو (قاو) أسست هذه المدينة أواخر القرن 12ه 8م على الضفة الشمالية لمنحنى نهر النيجر واستوطنتها عناصر من برابر شمال إفريقيا، ولقد تطورت المدينة بمرور الزمن وكبرت وتوسعت ،ولقد زارها حسن الوزان في القرن 15م ووجدها مزدهرة بالتجارة واسعة العمران، كثيرة السكان، وعندما قامت دولة الصنغاي خلفا لدولة المالي، إتخذتها عاصمة لها فزاد عمرانها ووفد إليها العالم المصلح محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني على أيام الأسقيا محمد الأول الكبير الطوري في أواخر القرن 15م وعلم بها ودرس، وقدم للأسقيا أجوبة عن الأسئلة السبعة حول نظم الحكم، وسياسة الملك وأنصاف العلماء والفقهاء وغيرها[46] ولقد لعبت هذه المدينة دورها في نشر الثقافة العربية الإسلامية بين الناس في المنطقة .

4/أروان : أسست حسب الروايات من طرف الشيخ أحمد أغ اد الذي كان يبحث عن مكان تتوفر فيه شروط العبادة ووجدها بها فأسس المدينة وشرع بنشر الإسلام، ولقد برزت كمركز إشعاع ثقافي وعلمي في عهده، ارتبطت المدينة بتوات أيّما ارتباط حيث تنقل عدد كبير من علماء توات إليها في فترات مختلفة نذكر منهم الشيخ محمد بن أب المزمري التواتي الذي درس بها وله قصيدة يصف فيها أحوال المدينة التي تحولت لمدينة تكرم التجار وتنفر من أهل العلم والفقهاء حسب قوله كما زارها الشيخ عبد الرحمن بن عمر التنيلاني الذي يذكر في فهرسة أنه زار المدينة مرتين وإلتقى خلالها بالشيخ أبو العباس سيدي أحمد بن صالح السوقي الذي أجازه ،كما تذكر بعض الروايات أن وفد من سكان المدينة قدم إلى زاوية كنته بتوات يطلبون مرشدا ومعلما، من شيخ الزاوية سيدي علي بن الشيخ أحمد الرقاد ،فأرسل

معهم سيدي الامين الملقب (بذي النقاب) الرقادي القادري الذي نزل عند قبيلة أولاد أحمد أقادة ،وبقي هناك يدرسهم ويعلمهم الورد القادري إلى أن توفي هناك من تلامذته الشيخ علي بن النجيب شيخ القادرية بأروان [47].

3/تنامي الطرق الصوفية وظهور فروع جديدة:

إلى جانب العلماء والفقهاء فلقد لعب المتصوفة دورا هاما في تصحيح عقيدة المجتمع السوداني وفي دعم العلاقات الثقافية والفكرية والروحية بين توات و السودان الغربي، ولقد كانت توات البوابة الرئيسية التي مرت منها الطرق الصوفية نحو الجنوب والتي انتقلت بفضل العلماء المتصوفة التواتيين وتلقينهم لهاته الطرق والتي خرجت منها فروع جديدة جراء هذه الحركية الانتقالية للعلماء.

ولقد عرفت الطريقة القادرية التي تأسست على يد عبد القادر الجيلالي من أوسع الفرق الصوفية إنتشارا وقد دخلت إفريقيا الغربية على أيدي مهاجرين من توات إلى تمبكتو مباشرة، وكان أول من نشر القادرية في بلاد السودان الغربي هو الشيخ والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي إتجه بجهوده إلى الجزء الأوسط من الصحراء الكبرى وإلى شمال نيجيريا، ثم سيدي أحمد البكاي الكنتي وتعرف طريقته بالبكائية ثم إنتشرت القادرية على يد الشيخ المختار الكنتي والشيخ السيد التأرازي الذي عمل على نشر القادرية في أرجاء السودان الغربي[48] هذا الأخير الدي عرف بعلمه وتآليفه العديدة في علوم الشريعة وتعمقه في الطريقة فقد ألف فيها كتاب أسماه الكوكب الوقاد ونظرا لأهميته في الطريقة قال فيه :"يجب أن يسمى بأسماء كثيرة وكثرة الأسماء تدل على عظمة المسمى"[49]،

أما الشيخ الفقيه **الطالب الحرشي** (ت 1166ه/1753م) فقد أخذ حكم إبن عطاء الله في التصوف الحكم العطائية على يد الشيخ أحمد بن عمر التواتي (ت 1156ه /1725م) وأخذ عنه الورد والطريقة في التصوف، كما أخذ الشيخ الطالب محمد بن الطالب عمر الخطاط بن محمد نفس البرتلي الولاتي (ت1165ه) الورد الخازي الناصري، ومبادئ التصرف على يد الشيخ أحمد بن محمد عمر بن علي بن عبد الله السابيتي التواتي .

ولم يساهم التواتيون في نشر الطرق الصوفية في السودان الغربي بل أدلوا بدلوهم في تأسيس البعض منها ومن فروع الطريقة القادرية والتي دخلتها بفضل علماء منطقة توات الطريقة **البكائية الكنتية** والطريقة **الرقانية** التي أسسها الشيخ مولاي عبد المالك الرقاني وكان لها إنتشار واسع في إفريقيا والفضل في ذلك يعود إلى الشيخ مولاي زيدان التواتي، كما تأثر سكان هاته الأخيرة بالطرق الصوفية وشرعوا في تعليمها والأخذ بمبادئها[50].

وكذلك أسس الشيخ حمى الله الطريقة الصوفية **الحمالية** الذي أخذ تعاليم الطريقة على يد الشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله الشهير بالشريف مولاي الأخضر، الذي كان يدرس التيجانية في السودان الغربي[51].

الخاتمة:

وفي الختام نستنتج أن الإحتكاك الجغرافي والعلاقات الثقافية والتجارية قد لعبت دورا هاما في تسهيل حركية الانتقال للعلماء وطلاب العلم بين الضفتين، حيث أن العلماء التواتيين لعبوا دورا عظيما في نشر الإسلام والعديد من العلوم إلى مناطق السودان الغربي، ويرجع لهذه المنطقة الفضل في مد السودانيين بالعلماء والأساتذة الذين ساهموا في تغذيتهم فكريا وروحيا، كما حظى العديد من العلماء والطلاب السودانيين الذين تنقلوا إلى توات بدافع العلم لمقابلة العلماء الأكفاء والشخصيات المهمة في المنطقة والذين حرصوا على لقائهم أمثال المغيلي وأبو القاسم التواتي وعبد الرحمن بن عمر التواتي

التنيلاني ،كما حظوا بالإحترام في الزوايا والحواضر التواتية وأضفوا مزيجا إفريقيا عربيا على هاته الحواضر، حتى أن المتصوفة كان لهم دور كبير في نقل تعاليم ومبادئ الصوفية إلى السودان الغربي وظهور فروع جديدة بها، حيث كانوا يرون فيها أرضا خصبة لنشر أفكارهم ومبادئهم.

وما يراد قوله في الأخير أيضا أن نتاج حركة الانتقال للعلماء وطلاب العلم بين توات والسودان الغربي قد أضفت على الحركة العلمية صبغة عربية افريقية على كلا الضفتين.

الهوامـــــــش:

[1]محمد الصالح حوتية، توات والأزواد خلال القرنين 12-13هـ/18-19م دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، د.ط ،الجزائر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة،2007،ج1، ص28.

[2]مبخوت بودواية،دور علماء تلمسان الزيانية في ترسيخ الحضارة الإسلامية بالسودان الغربي15-16م،ع1،مجلة الواحات للبحوث والدراسات،2006،ص10.

[3]يحي بوعزيز،تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرون، د.ط، الجزائر، دار البصائر للنشر و التوزيع،2009،ص9.

مبارك بن الصافي جعفري، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ،ط1،الجزائر، دار السبيل

[4]للنشر والتوزيع، 2009،ص 260،261

[5]فرج محمود فرج، اقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر ميلاديين، الجزائر ،ديوان المطبوعات الجامعية ، 2007،د.ط،ص24.

[6]مبارك بن الصافي جعفري، المرجع السابق،ص261 .

[7]يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص151.

[8]عبد الله مقلاتي ورموم محفوظ، دور منطقة توات الجزائرية في نشر الاسلام والثقافة العربية بافريقيا الغربية، ط1، الجزائر، دار السبيل للنشر و التوزيع،2009،ص،58.59

[9]نفسه، ص 152.

[10]مبروك مقدم، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الامارة الإسلامية بإفريقيا الغربية خلال القرن 9هـ/15م، د.ط، الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع،2006،ص ص27-30.

[11]يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ص77،76.

[12]أبوبكر اسماعيل محمد ميقا، تاريخ الثقافة الاسلامية والتعليم في السودان الغربي (افريقيا الغربية)من القرن الرابع للهجرة حتى القرن الثالث عشر للهجرة ،مجلة الدارة،ع1414،12هـ، ص ص 232،233.

[13]محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ص ص 277،278.

[14]نفسه،ص278.

[15]مبارك بن الصافي جعفري، المرجع السابق، ص300.

[16]نفسه ، ص 285.

[17]نفسه ، ص301.

[18]محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ص ص 282،283.

[19]مبارك بن الصافي جعفري، المرجع السابق،ص303.

[20]نفسه،ص303.

[21]نفسه، ص- ص 303-305.
[22]أبي القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة روبير فونتانة، الجزائر،1906،ص12.
[23]أحمد بوعتروس، الحركات الاصلاحية في افريقيا جنوب الصحراء ابان القرن الثالث عشر الهجري –التاسع عشر ميلادي ،الجزائر ،دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع،د.ط،2009،ص89.
[24]مبارك بن الصافي جعفري، المرجع السابق، ص293 .
[25] أحمد بوعتروس، المرجع السابق،ص91.
[26]يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص165.
[27]عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص 138.
[28]نعيم قداح، إفريقيا العربية في ظل الإسلام، مراجعة: عمر الحكيم،د.ب، سلسلة الثقافة الشعبية ،د.س، ص145.
[29] مبارك بن الصافي جعفري، المرجع السابق،ص-ص306 -308.
[30]نفسه، ص 51.
[31]محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ص ص272. 273
[32]مبارك بن الصافي جعفري، المرجع السابق، ص ص52،53.
[33]نفسه، ص ص53،54.
[34] محمد الصالح حوتية، المرجع السابق، ص 33.
[35] مبارك بن الصافي جعفري، المرجع السابق، ص 57.
[36]نفسه، ص-ص 64 -66.
[37]نفسه، ص-ص 63-64.
[38]حسين جاجو، حركة الحاج عمر الفوتي في السودان الغربي خلال القرن التاسع عشر ميلادي، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، معهد التاريخ، جامعة الجزائر،1994،ص 43.
[39]حسن الوزان، وصف افريقيا ،ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2،بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983،ص165.
[40]عمار هلال، الطرق الصوفية ونشر الاسلام والثقافية العربية في غرب إفريقيا السمراء، د.ط، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص ص 76،77.
[41]يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 157.
[42]مبارك بن الصافي جعفري، المرجع السابق، ص ، ص 242،243.
[43]عمار هلال، المرجع السابق، ص88.
[44]يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 156.
[45]حسين جاجو، المرجع السابق، ص ص 45،46 .
[46]يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 154.
[47]مبارك بن الصافي جعفري، المرجع السابق، ص- ص 248-251.
محمد فاضل علي باري وسعيد ابراهيم كريدية، المسلمون غرب إفريقيا تاريخ وحضارة،ط1،بيروت،دار الكتب [48]العلمية،2007،ص ص 43-44
[49]محمد الصالح حوتية، المرجع السابق،ص182.
[50]مبارك بن الصافي جعفري، المرجع السابق، ص ص 280،281.
[51]نفسه، ص307.